لجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

# محاضرات في مقياس النثر الجزائري الحديث

## السنة الأولى ماستر

## تخصص أدب جزائري حديث

إعداد الدكتور/ توفيق قحام

السنة الجامعية 2022/2021

## المحاضرة الأولى:

## أدب الرحلة في الجزائر:

### 1- التعريف بأدب الرحلة:

يعتبر أدب الرحلة من الفنون النثرية الرائدة في الآداب العالمية على مر العصور، وذلك لاعتبارات متعددة، منها الاجتماعية كالعادات والتقاليد، والمعرفية كطلب العلم والتعمق فيه ومخالطة العلماء والرواة، وهناك اعتبارات استكشافية كرحلة كريستوف كلومبوس إلى العالم الجديد (أمريكا)، بالإضافة إلى رحلات عسكرية وسياسية متصلة بالاتفاقيات والتمثيلات الدبلوماسية، وهناك الرحلة السياحية التي تتركز على التعرف على طبائع البلدان والشعوب وقضاء جو من الراحة والتسلية.

والأكيد أن الرحلة كان لها الفضل في خلق التقارب الفكري والمعرفي بين الناس، وتوسيع القيم والأفكار والمدركات، والاستفادة من تجارب الآخرين ومن دروسهم في الحياة، برغم السيطرة والتفكك الذي لحق ببعض المجتمعات الضعيفة نتيجة قوة الآخر وعنفه، تماما مثلما هو الحال مع الهنود الحمر في أمريكا اللاتينية والشمالية، عندما تعرضوا لأبشع أنواع القتل والتنكيل بعد وصول الأسبان والبرتغاليين، فالرحلة فن للتعارف والالتقاء واستيعاب الثقافات والموروثات المتصلة بالإنسان بشكل عام، قبل أن تكون تنقلا عاديا متصلا بالمادة والتجارة.

### 2-بواعث أدب الرحلة:

يمكن القول أن البواعث الفعلية للرحلة متنوعة، وتخضع لطبيعة المرحلة، وللتطورات الحاصلة على مستوى الجماعة، بالإضافة إلى التقدم العلمي و المعرفي، ونمو الإنسانية الطبيعي، الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى، ومن أهم البواعث التي سرعت من ظهور أدب الرحلة في البيئة العالمية و الجزائرية بوجه خاص:

**1-الباعث السياسي أو الإيديولوجي**: ويعتبر هذا الباعث قديما قدم الإنسان، حيث القبائل الجاهلية كانت ترسل رسلها للتفاوض على القضايا العالقة مع جيرانها، خاصة ما تعلق فيها بموضوع الثأر، والتحالفات العسكرية، وتقوية الصفوف، وتنظيم الاحتفالات، ولهذا جاز تقسيم هذا الباعث إلى:

1.1-رحلات الحرب والجهاد، التي هي أقدم البواعث، القائمة على الغزو والانتقام والعنف، ومنها الحروب اليونانية و الرومانية، وعند العرب حرب البسوس وحرب داحس والغبراء.

1.2-رحلات الجوسسة والعمالة: وتقوم هذه العملية على إرسال جواسيس لكشف أخبار العدو ومعرفة نقاط ضعفه، للسيطرة عليه بسهولة، وكثيرة هي أخبار الجوسسة والعمالة في التاريخ القديم و الحديث، خاصة مع الكيان الصهيوني.

-الرحلات الدبلوماسية: وهي من أقدم بواعث الرحلة، التي كانت بدايتها الأولى مع القبائل القديمة، التي كانت ترسل رسلها لعقد الاتفاقيات والصفقات، والتحالفات المتصلة بالتكتل السياسي والعسكري.

**2-الباعث الإداري و المالي:**

1.2-البريد: وكان ظهوره في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث ساعي البريد يقطع المسافات الطويلة لإيصال الطرود والبرقيات المستعجلة، والرسائل بين الملوك و السلاطين، وتطور مع مرور الوقت لشمل كل البلاد والأمصار.

2.2-التجارة: ولعل التجارة في البيئة الحجازية تعتبر من أبرز هذه الأنواع وأكثرها انتشارا، فقد عرفت البشرية التجارة منذ القدم، ومارستها بكل اهتمام وشغف، ولعل جبال تهامة بين المينة المنورة ومكة المكرمة شاهدة على هذا النوع من الكتابة.

3.2-الجباية: حيث نعثر على هذا النوع في البلاد الإسلامية، خاصة مع البعثة النبوية، حيث فرض الرسول عليه الصلاة و السلام الجزية على اليهود، لقاء حمايتهم فكان الجباة يسافرون لجمع المال، وهم بذلك يكتشفون الطبائع والعادات والتقاليد.

**3-الباعث الديني:** وهو من أبرز البواعث التي ميزت المرحلة، حيث الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام شمال إفريقيا والبلاد الأوروبية.

1.3- طلب العلم والمعرفة: وهو من أهم البواعث المنتجة لأدب الرحلة، وقد تطور هذا الباعث على مر العصور، خاصة في العصر الحديث، وذلك في كل المناطق والبيئات.

2.3-تقديم العلم: ولعل البيئة الإسلامية من أهم المناطق التي شهدت هذا الباعث، والذي استفادت منه الجزائر بوجه خاص، حيث البعثات التعليمية كانت مزدهرة في العصر الحديث وحتى في العصر العباسي، ويمكن القول أن رحلة رفاعة الطهطاوي من أبرز هذه الرحلات، وأكثرها تأثيرا في البلاد العربية، فقد دون الطهطاوي كل ما شاهده عند الغرب، معربا عن صدمته من التقدم الرهيب والمتسارع الذي تتسم به هذه المناطق.

**5-الرحلة في الأدب العربي المعاصر:**

في المرحلة الحديثة؛ أو في فترة مايسمى بالنهضة العربية في مصر، يعتبر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي رائد الرحالين الجدد في البلاد العربية، حيث كان كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" ثمرة البعثة العلمية التي أوفدها محمد علي إلى أوروبا وإلى فرنسا بالتحديد، تماما مثلما كان خطابه تحقيقا لأمنية معلمه الشيخ حسين العطار

الذي كان مولعا بسماع عجائب الأخبار، وقد تلى الطهطاوي في رحلاته الشيخ "أحمد فارس الشدياق (1805- 1887م)" هذا الأخير أصدر كتابين في الرحلة: "الواسطة في معرفة أحوال مالطة" و"كشف المخبأ عن فنون أوروبا".

وفي مطلع القرن العشرين ازداد التوسع السكاني وتطورت وسائل النقل وانتشرت الرحلة بمختلف أشكالها وصارت لوننا أدبيا متخصصا، يحتفي به عند الكثير الأقلام فكان "أمين الريحاني (1876-1940) أحد أبرز هؤلاء الكتاب، حيث زار الكثير من البلدان العربية من مشرقها إلى مغربها وألف كتابين في ذلك: "ملوك العرب"و"المغرب الأقصى ونور الأندلس".

كما ظهرت أسماء أخرى منها : محمد الخضر حسين، و البتانوني، و محمد حسين هيكل، و طه حسين، وحسين فوزي، وغيرهم.

## 6-الرحلة في الأدب الجزائري:

### 6-1-الرحلة الداخلية في الجزائر:

تميزت الرحلة الداخلية في الجزائر بأهدافها وغاياتها القريبة والنبيلة، حيث جاءت كمبادرات شخصية للدعاة والمفكرين والمحسنين الذي يبحثون عن نشر الدين وإقامته، بالإضافة إلى مساعدة المحتاجين وزرع مبادئ الأخوة والتسامح بين أفراد المجتمع، وقد تميز واختلف أسلوب كل كاتب عن الآخر في تدوينه لرحلاته حيث ركز الشيخ والمصلح "أحمد توفيق المدني" عل قالب السرد في كتاباته النثرية، كما حاول وصف الواقع المزري للفرد الجزائري بتفصيله وحيثياته دون تحريف أو تزييف، أما الشيخ "البشير الإبراهيمي" فقد استعمل المباشرة في الإخبار في رحلته بين الشرق والغرب، وحتى في رحلاته الخارجية إلى المشرق مثله مثل العلامة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" والشيخ "أحمد رضا حوحو"، هذا الأخير الذي كانت رحلته إلى روسيا و"محمد الصالح رمضان" رحلته إلى فرصوفيا و"محمد الزاهي الميلي" ورحلته الوصفية من قسنطينة إلى باريس كما كان الشيخ "الغسيري " من مغرمين جدا بالوصف، حيث كان يعتمده بقوة في وصف الأماكن والأحداث دون انقطاع، يضاف إلى هذا رحلة "حمزة بوكوشة" إلى فاس والرباط والدار البيضاء[1]

والأكيد أن رحلة "عبد الحميد ابن باديس" في الداخل الجزائري كانت تهدف إلى بعث العلم والمعرفة والتفقه في الدين، فجاءت حافلة بالوصف والإخبار ومنها قوله:"كنا نرى في جميع المجالس إقبالا وقبولا مما لاشك معه في

[1] ينظر. عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر،د ط، 1974، ص73.

بقاء الأثر الطيب في القلوب إن شاء الله" [2]. ويقول في معرض آخر وهو يصف استقبال الناس في مدينة مسكيانة بالغرب الجزائري:"وبالغ أهلها في الاحتفاء والاعتناء، وكانت مجالس في عدد محلاتهم التجارية لم تخل من تعليم وتذكير"[3].

كما تحدث ابن باديس عن زيارته للغرب الجزائري، ولقائه لبعض المشايخ و الدعاة ومنهم "أحمد بن عليوة" الذي أقام حفل عشاء على شرف العلامة فوصفها الأخير يقوله:"بالغ في الحفاوة والإكرام، وقام على خدمة ضيوفه بنفسه، فملأ القلوب والعيون وأطلق الألسنة بالشكر...ومما شاهدته من أدب الشيخ مضيفنا وأعجبت به أنه لم يتعرض أصلا لمسألة من محل الخلاف يوجب التعرض لها على أن أبدي رأيي وأدافع عنه"[4] وهو وصف ينم عن شخصية قوية وحكيمة وعادلة وكريمة، لاتنكر جميلا ولا تجحد معروفا.

وفي وصف المدن الداخلية نجد رحلة ابن باديس إلى مدينة غليزان، حين أشار إليها بالمدح والإثراء وعلو المكانة، فهي "مثل بلدة الأصنام من ناحية التجارة بل أكثر، ومثل مليانة من ناحية المعارف"[5]، كما عبر الشيخ عن حفاوة الاستقبال الذي لقيه من شريحة المزابيين الذين استوطنوا المكان بفعل التجارة، حيث يذكر ذلك في قوله:" استدعانا إخواننا المزابيون إلى محلهم وأقاموا لنا احتفالا حضره جميع أفرادهم واستدعوا بعض أعيان البلد، فشاهدنا من أدبهم وحسن اقتبالهم لجمعية العلماء ماسرنا بهم كثير السرور"[6] وهي علامة دالة على مكانة الشيخ في الشرق والغرب وكذلك على اهتمام المزابيين بالعلم والعلماء وتكريمهم لهم والتفافهم القوي حول القضية الجزائرية، في صورة للوحدة و التآزر الفكري ولمعتقدي.

**المحاضرة الثانية:**

## الرحلة الخارجية في الجزائر:

## 1-مسار الرحلة الخارجية في الجزائر:

تنوعت الأقطار والأقاليم التي زارها الرحالون الجزائريون، تماما مثلما تعددت أسباب هذه الرحلات، وذلك على مر التاريخ، حيث نعثر على البدايات الأولى للرحلة في الفكر الجزائري مع علماء الدين واللغة، فقد برز بكر

---

[2] ابن باديس :الآثار، ج04، جمع وتقديم عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط02، 1982، ص305

[3] المرجع نفسه: ص310.

[4] المرجع نفسه: ص312.

[5] المرجع نفسه: ص311.

[6] المرجع نفسه: ص310.

بن حماد التيهرتي (200-292هـ)، (815-908م) برحلته إلى تونس أين درس بالقيروان قبل أن يواصل رحلته إلى بغداد ملتحقا بالخلافة العباسية كأول الرحالة الجزائريين في هذا النوع الأدبي، حيث التقى بأدباء وفقهاء ومحدثي الأمة فكانت له فائدة غزيرة في العلم، التقى الخليفة المعتصم بالله ومدحه في حكمه، فقربه إليه وجعله من شعراء البلاط، لكنه مالبث أن عاد إلى القيروان سنة 247هـ ليتفرغ للتدريس هناك، فجاءته الوفود من كل البلاد العربية و الإسلامية، قبل أن يستقر بمسقط رأسه تيهرت سنة 289هـ.

وليس وحده بكر بن حماد ممن برز خلال هذه المرحلة، بل إن هناك شخصية أخرى هي شخصية **ابن الأشج** المعروف بزكريا بن بكر بن أحمد العساني التاهرتي (310-393هـ)، وهو أحد العلماء المحدثين الذين اهتموا بطلب العلم في كل المناطق، حيث ساعدته الرحلة العائلية إلى الأندلس سنة 326هـ في طلب العلم واكتشاف البلدان فانتقل بعدها إلى مصر ثم عاد إلى قرطبة وبقي هناك يعلم ويكتب الشعر إلى غاية وفاته، كما أن هنالك شخصية أخرى واكبت تاريخ الرحالة السالفين وهي شخصية أبومروان عبد الملك بن زيادة الله بن علي الطبني – نسبة إلى طبنة (396- 457هـ)، التي اشتهرت برواية الحديث، حيث ارتحل الرجل إلى قرطبة ودرس هناك مختلف العلوم وبرع في الحديث، حتى قال عنه ابن بسام في كتاب الذخيرة :"كان (أبو مروان) من أهل الحديث والرواية، ورحل إلى المشرق، وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز، وقتل بقرطبة"[7] وروى عنه صاحب نفح الطيب فقال:" من ثنية شرف وحسب، من أهل حديث وأدب، إمام في اللغة متقدم، فارغ لرتب الشعر متسنم، له رواية بالأندلس، ورحلة إلى المشرق.."[8].

ولعل هذا الكلام تعبير عن الثقافة الموسوعية والشهرة الكبيرة التي وصل إليها الطبني في مسيرته، والتي ساعدت من جاء بعده على البروز، فكان "**يوسف بن إبراهيم الورجلاني** (500-570هـ) أحد هؤلاء الرحالة المتميزين، حيث زار الكثير من دول المشرق العربي ونهل من العلم والمعرفة ما يكفيه لتنوير بني بيئته، خاصة في مجال التفسير والفقه والتاريخ، فبعد رحلته العلمية إلى المشرق العربي والتي زار فيها السعودية و سوريا مرورا بمصر عاد إلى بلدته ورجلان ليتفرغ للتعليم والتأليف حتى وفاته

ويمكن أن نضيف خلال هذه المرحلة من "القرن السادس الهجري الذي يمثل فترة زاهية في حياة الرحلين الجزائريين الذين فاق تعدادهم الخمسة عشر عالما رحالا"[9]، شخصية أخرى هي أبي الحسن يحي الزواوي (546-

---

[7] محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ص68.

[8] المرجع نفسه: ص85.

[9] ينظر عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية و الاسلامية، ص238.

628هـ)[10]، التي اشتهرت برحلتها إلى دمشق، حيث تفرغ الزواوي إلى طلب العلم من علماء الشام لفترة طويلة قبل أن يشتغل هناك بالتدريس، بعدها انتقل إلى جامع الأزهر فدرس هناك قبل أن يتفرغ للتدريس إلى غاية وفاته.

أما بالانتقال إلى القرن الثامن الهجري الذي يمثل "أزهى عهود الرحلات في الأدب العربي من حيث التنوع والكم" فإننا نجد أن مرحلة جديدة من مراحل التدوين قد انطلقت على الساحة الفكرية والأدبية بشكل عام، وظهر معهم مجموعة من الرحالين الذين اشتغلوا على تدوين رحلاتهم الخارجية بين كل البلدان، ومن أبرزهم أبوالقاسم بن يوسف التوجيبي التلمساني (م730هـ)، طالب العلم الذي زار مصر و الحجاز والتقى علماءهم وأخذ عنهم، وكانت له فرصة وشرف زيارة بيت الله الحرام، فأدى فريضة الحج، عرف عنه تدوينه لرحلته نحو المشرق، واهتمامه "بالأخبار... ووصف الآثار العمرانية والمعالم الظاهرة، في البلدان"[11]، كما عرف عنه دقة وصفه وحسن تصويره واهتمامه بالجمع والنقل لكل الأحداث و الوقائع، لم يخف شدة إعجابه بالبلاد المشرقية التي ظل يتغنى بها طول حياته.

وفي الفترة نفسها ألف الرحالة الجزائري محمد بن محمد أبا عبد الله المقري التلمساني (ت758هـ-1357م) عصارة رحلته إلى المشرق والتي حملت معاني العبادة و الدعوة والعلم فسماها "رحلة المتبتل" تيمينا بنيته القاصدة للعلم والمعرفة والدين، فوصفها الدارسون بأنها كانت "رحلة علمية، ودينية، قصد منها طلب العلم، والقيام بالحج"[12]، ومن أهم المدن التي زارها: القاهرة، ودمشق، ومكة المكرمة، وهي أكبر المدن وأعرقها تاريخا، وحضارة، وعلما، ودينا.

كما ألف الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر بن علي البجائي (740هـ- 1339م) بعض المقتطفات عن رحلته إلى المشرق وبصفة خاصة إلى الحجاز، كما دعا إلى تدوين الرحلات للاستفادة منها. عرف باهتمامه بالأدب وبغزارة علمه وفصاحة لسانه، وصفه لسان الدين الخطيب بأبلغ الصفات وأشدها تأثيرا في النفوس، فقدم مكانته وأخلاقه وشجاعته وأدبه حيث قال:".. كاتب الخلافة، ومشعشع الأدب الذي يزري بالسلافة، كان بطل مجال، ورب رواية وارتجال، قدم هذه البلاد (مالقا) وقد نبا به وطنه.. ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة، ومرية يانعة، ثم آثر قطره، فولى وجهه شطره.. فاستقامت حاله، وحطت رحاله، وله شعر أنيق، وتصوف وتحقيق، ورحلة

---

[10] المرجع نفسه: ص ن.

[11] أبوالقاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16-20)، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، ط02، 1985، ج02، ص396.

[12] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المكتب التجاري، بيروت، ط01، 1971، ص180.

إلى الحجاز سعيها في الخير الوثيق، ونسبها في الصالحات عريق."[13]. فالرحلة حملت عند البجائي طابعا تأريخيا ووصفيا.

**2- مسار الرحلة في العهد العثماني:**

شهد القرن السادس عشر الميلادي حركة كبيرة في مجال الرحلة وتدوينها عند أعلام الجزائر، حيث شهدت انبعاثا وتطورا لافتا عبر مسارات مختلفة وأهداف متباينة، منها ماهو مرتبط بالعلم ومنها ماكان متصلا بالدين ،وتكاد تكون الوجهة الغالبة في الرحلة هي البلاد العربية سواء الشام أو الحجاز أو المغرب الأقصى و الأندلس.

ومن أبرز من أشتهر في هذه المرحلة الشيخ "أحمد المقري التلمساني" (986هـ- 1572م) واسمه الكامل أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن أبي عيش، تلقى تعليمه الأول على يد عمه أبو عثمان سعيد المقري، وأبي عبد الله بن مرزوق التلمساني، عرف بنباهته وفطنته وسرعة بديهته، تردد في بداية نشاطه التعليمي على مدن المغرب الأقصى، حيث زار مدينة فاس 1009هـ كما زار مراكش سنة 1010هـ أين اتصل بالسلطان أحمد المنصور الذهبي (ت1012هـ)، اشتغل في المغرب بالقضاء والفتوى والخطابة في جامع القيروان، فكان من أقرب الناس إليه هناك محمد بن يوسف التاميلي المراكشي، وعلي بن أحمد الفاسي.

خلال إقامته بالمغرب استطاع المقري أن يجمع باكورة ثقافته ومجالسته للعلماء و المفكرين و الدعاة، في تحفة مليئة بالعبر و الدروس والخطابات سماها "روض الآس العاطر الأنفاس فيمن لقيت من أعلام مراكش وفاس"، وكذلك كتاب عنونه بـ "الجنايذ فيمن لقيته من الجهابذ" وهي سيرة في خير الأحباب و الأصحاب والمشايخ الذين تزين المقري بعلمهم وأخلاقهم، من أمثال القاضي عياض الذي كتب فيه " أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض".

وفي رحلته إلى المشرق اختار المقري بدايتها لتأدية مناس الحج والعمرة فاستأذن ملك المغرب للذهاب سنة 1027هـ، أين حط الرحال بالحرمين الشريفين فكانت له زيارات ولقاءات داع بها صيته وعرف بها علمه فلقبه سلطان الحرمين الشريفين محسن بن الحسين بـ " العلامة الإمام، الحبر الفهامة، إمام المحدثين، لسان المتكلمين، حجة المناظرين، مؤسس مقاعد التدريس والفتوى، وممهد قواعد التقديس والتقوى"[14]، ولم يتردد المقري خلال إقامته بالمدرنة المنورة في تدوين رحلته حيث ألف كتابا سماه "فتح المتعال في مدح النعال" كما ألف " أزهار الكمامة في أخبار العمامة ونبذة من ملابس الخصوص بالإسراء والغمامة"، وفي مصر التي زارها رفقة بعض المدن

---

[13] أحمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الطيب الخطيب، ج07، ص339.

[14] الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري (المطبوعة....)

العربية المشرقية كالقدس و الخليل وغزة، ودمشق، ألف كتابا آخر سماه "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب". عرف المقري بعنايته بالأدب و الشعر خاصة، فكانت له محاولات جادة في الموشحات، كرس غالبيتها لمدح خير الأنام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، كما كانت له كتابات في الأخبار و الطبائع، غلب عليها الوصف والتأريخ وتدوين الحقائق، واعتبرت رحلة المقري من أكثر الرحلات وأقواها أثرا على مسار الحياة الجزائرية و العربية عامة، نظرا للطابع الديني والأخلاقي الذي قامت عليه أفكاره وقناعاته.

ومن الرحالين الجزائريين الذي اشتهروا في عهد الحكم العثماني الشيخ العلامة الحسين الورتلاني المولود سنة 1125هـ- 1713م، تعلم الفقه و النحو والتصوف والتوحيد[15]، كما اهتم بالأدب والتأليف، والتاريخ، زار الكثير من البلدان وعرف في بيئته بكثرة الترحال، حيث زار تونس وطرابلس ومصر و الحجاز، واتصل بالعلماء في كل الأقطار وحضر مجالسهم وحلقاتهم فكان ممن جالس الشيخ محمد الحفناوي، والشيخ البليدي وعلي الصعيدي وعلي الفيومي وعبد الوهاب العفيفي، كما زار البقاع المقدسة لتأدية مناسك الحج والعمرة وطلب العلم و المعرفة.

تميزت رحلة الورتلاني بتدوين الأخبار والجغرافيا، وتاريخ البلدان العربية، وجاء ذلك في صفوة كتابته " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وهو ماكان استجابة لواقع مزر في كتابة التاريخ والاهتمام بالأخبار، فقد قال فيه مبررا سبب كتابته :" لاسيما أهل بلادنا، فإن علم التاريخ منعدم فيهم، وساقط عندهم فيحسبونه الاستهزاء، أو اشتغالا بما لايعني أو من المضحكة المنهي عنها"[16]ن فالتاريخ عنده قيمة تصنع مستقبل الشعوب وتحرك رغباتها وتقوي عزيمتها، فهو "موعظة للمعتبرين، وتذكرة للموقنين وتبصرة للمتفكرين"[17] .

إن المتأمل في رحلة الورتلاني يستشف الوجه الجديد للرحلة في التاريخ العربي الحديث، كما يكتشف نمطا تفصيليا جديدا في كتابة الرحلة، أين تجتمع الحضارة مع التاريخ والجغرافيا، وتتقاطع العلاقات والشخصيات لتنتج لنا روح الزعامة في الأمة، ومتعة تذوق أخبار السابقين من المفكرين والعلماء والفقهاء.

وغير بعيد عن الشيخ الورتلاني يستقر علم وفكر وأدب الشيخ الرحالة محمد بوراس وأسمه محمد بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر المعسكري، المولود سنة 1150هـ -1757م، وذلك بالغرب الجزائري، كان لعاملي اليتم و الفقر اللذين عاشهما الرجل الدور الكبير في تنقلاته المختلفة ورحلاته المتعددة، حيث زار الحجاز والشام

---

[15] M. HADJ- SADOK. à travers la berbèr oreontal du XVIII e siècle avec le voyageur AL-Warthilani. Revue Africaine. Société historique Algerienne. 1951. P320.

[16] الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تقديم محمد بن ابي شنب، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908، ص 597.

[17] المصدر نفسه: ص03.

وفلسطين، وكان أولى رحلاته سنة 1204هـ[18]، كما داع صيته وانتشر علمه في كل الأقطار فلقب في مصر بشيخ الإسلام، فيقول عن زيارته لها (مصر) "..لقيت بها العلماء الكبار، وأهل العلم والأدب والأخبار: الإمام الأرضي.. شيخنا السيد مرتضي، ففاوضته في فنون، فوجدته كما لي فيه من الظنون، ورويت عنه أوائل الصحيحين ورسالة القشيري، ومختصر العين، ومختصر الكنز الراقي، واجازني بالباقي"[19]، عاد إلى مسقط رأسه ليتقلد مناصب الفتوى والقضاء والخطابة بولاية معسكر (حاليا)، لكنه مالبث أن رحل فاس بالمغرب الأقصى، انتقل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ثم استقر سنة 1226هـ بمعسكر إلى غاية وفاته سنة 1238هـ -1824م، قبل الحملة الفرنسية على الجزائر بسنتين.

يتقاطع الحس الرحلاوي عند بوراس مع حس الورتلاني من خلال الانبهار ونقل الأخبار، فقد كان كتاب "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" مرجعا هاما لكشف الوقائع وتحرير التاريخ من زيف الغواية، لما حمله من زيارة للملوك والأمراء، ومجالس للعلم والمعرفة ومن لقاءات مع الطلبة والراغبين في العلم، كما كان وصفه للمجالس دقيقا وتحقيقه للأخبار صادقا، وليس وحده هذا العنوان من زخرت به المعارف و الأحداث بل إن كل مؤلفاته صبت في خانتة الاهتمام بالعلم و الدين و اليوميات والمجتمعات و الجغرافيا، ومنها "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"وكتاب " الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية" و "حلتي ونحلتي، في تعدد رحلتي".

يرى الباحثون أن رحلة أبي راس تميزت بمنهج دقيق اعتنى فيه بتقسيم المادة إلى خمسة أبوب، فكان الباب الأول متعلقا بحياة المؤلف، والباب الثاني خصه بذكر شيوخه، في حين خصص الباب الثالث للحديث عن رحلته، وهو بعنوان "في رحلتي إلى المشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام، والباب الرابع خاص بالمواضيع التي نوقشت في مجالس العلم، التي حضرها، أما الباب الأخير فقد تمثل في ذكر تعدادا الكتب التي ألفها، مع وصف مختصر لها، وعنوانه "العسجد و الإبريز، في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز"، كما أن رحلة أبي ناصر مختلفة عن سابقتها بحكم اهتماماه بالموضوعات العلمية.

ويمكن اعتبار الأمير عبد القادر الجزائري (و1222هـ-1808م)، آخر الرحالة في الفترة العثمانية، وهو الذي جمع بين حقبتين تاريخيتين هامتين في مسار التارخ الجزائري، حيث واكب العثمانيين مثلما واكب الاستعماريين (الاستعمار الفرنسي 1830)، ولعل هذه الفترة لها خصوصيتها الثقافية و الدينية والسياسية والفنية والعسكرية، التي تجعلها المحطة البارزة في التاريخ القريب، بدأت رحلة الأمير عبد القادر إلى خارج البلاد مع والد

---

[18] محمد أبوراس الجزائري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح. محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص24.

[19] المصدر نفسه: ص11،116.

الشيخ محي الدين سنة 1239هـ للهجرة، أين سافر إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، قبل أن ينتقل إلى الشام، ثم بغداد، ليعود إلى الجزائر متفرغا لمقاومة المستعمر، وفيها ألف سيرته الذاتية التي تضمنت رحلاته إلى المشرق، وزيارته للبقاع المقدسة[20]، التي عاد إليها سنة 1279هـ، بعد أن أطلق سراحه من طرف المستعمر الفرنسي، ليستقر به المقام في المنفى بدمشق إلى غاية وفاته سنة 1300هـ- 1883م.

**3-الرحلة الجزائرية في العصر الحديث:**

تنوعت أغراض الرحلة في العصر الحديث وتعدد مذاهبها، ففي البيئة الأوروبية نجد مدونات محمد الصالح رمضان "سوانح وارتسامات عابر سبيل"، وهي رؤية وصفية لما شاهده وعاشه من مدينة مرسيليا إلى مدينة فرصوفيا، حيث نجد في الأولى يقول:"والمدينة التجارية الكبرى التي يكتنفها الجبال والتلال من ثلاث جهات، وأن الميناء يقوم على لسان من البحر طويل يتوغل في قلب المدينة كالسيف يقسمها نصفين متعادلين"[21] محاولا تأثيث المكان بقالب فني متضمن معاني الصورة التخيلية المتشكلة من دلالات السيف وقوة العدل، وأما في الثانية فإننا نجده يصف المهرجان الشعبي المقام بها حيث العاصمة فرصوفيا تتزين بأبهى الحلي و"انطلقت المسيرة من قلب العاصمة براياتها وشعاراتها المختلفة في اتجاه الملعب المركزي، استمرت نحو ساعة وسط أهازيج الترحيب والهتاف من المشاهدين الذين اصطفوا ألوفا لا تحصى كبارا وصغارا على جانبي الطريق...فهذه المسيرة عبارة عن نهر بشري يتدفق في نظام وهدوء تعلوه رايات الوفود المختلفة الألوان"[22]، حيث رأى أن علم التاريخ علم جليل وفوائده عظيمة.

**المحاضرة الثالثة:**

## تطور فن الخطابة في الأدب الجزائري

**1-مفهوم الخطابة:**

تعددت التعريفات والمفاهيم المتعلقة بفن الخطابة واستمدت مرجعياتها من القصد والوسيلة، حيث أبدع النقاد والدارسون في تقديماتهم لها، ولعل من أهمها تلك التي نجدها في الفكر الغربي القديم، حيث يعرفها آرسطوطاليس بقوله:" هي قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"

---

[20] عبد القادر بن محي الدين: مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية، تح محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة و النشر و التوزيع، ط02، 1995، ص23.

[21] محمد الصالح رمضان: سوائح و ارتسامات عابر سبيل، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004، ص55.

[22] المرجع نفسه: ص120.

وأما في الفكر العربي فيعرفها "محمد الشريف الجرجاني" بأنها "قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم"، حيث يركز على مقدمة الخطبة بوصفها صدر العملية التخاطبية، وهي مفتاح الولوج إلى المادة المعرفية، ثم ينتقل إلى تحديد ماهية الخطيب، الذي يجب أن يكون معروفا بأخلاقه وصفاته الحميدة، وبصدق حديثه بين المخاطبين، لتأتي بعدهما السمة الثالثة وتتعلق بالقصد والترغيب في ماينفع المخاطب والتنفير مما يضره باستعمال الحجة والبرهان، ولهذا يركز الكثير من الدارسين على مسألة الإقناع في فن الخطابة، مثلما هو الحال مع "محمد الحوفي" الذي يراها " فن مشافهة الجمهور واقناعه واستمالته" . أو هي " فن أدبي هدفه التوجيه والتحويل والاستمالة والإقناع"

**أهداف الخطبة:**

1- التهذيب والتربية والإصلاح: حيث تهدف الخطبة إلى التوعية والإرشاد والتوجيه من خلال التحسيس، والحث على تهيئة الشباب لقيادة الأمة، والاستثمار في المقومات الانتمائية للجماعة.

2- بعث الأخلاق ونشر الدين: ويعتبر الدين أهم ركيزة في الخطبة، والمرجعية الأساسية لثرائه وشهرته، فقد تطور هذا اللون الأدبي مع مجيء الإسلام، وكان الآلية الأساسية لبناء المجتمع المسلم.

**2- شروط الخطيب:**

1-الذكاء والفطرة.

2- الثقافة الواسعة وامتلاك الحجة.

- الاندماج في المجتمع معرفة أحواله والتفاعل معه.

**3-مراحل الخطابة في الجزائر:**

**3-1-مرحلة الأمير عبد القادر:**

استرجعت الخطابة هيبتها ومكانتها بوصفها فنا هادفا للإبانة والإفصاح مع الأمير عبد القادر، حيث أصبح الأسلوب متينا واللغة قوية وهادفة، كما تنوعت مواضيعها بين الشدة واللين ، وكان من ابرز ما تناولته خطب الأمير، الدعوة إلى مقاتلة الاستعمار الفرنسي وبث الحماسة في نفوس الجيش، وقد اتسمت الخطبة في هذه المرحلة بالحجة الشرعية و القرينة العقلية وحسن التأثير في الفرد، كما أن أصاحبها من الرجال الأخيار و العلماء الأبرار، فالأمير عرف بالذكاء والفطنة وحسن التدبير، والقدرة على مخاطبة الناس وكسب تعاطفهم وتفاعلهم، كما عرف بمحاوراته ومحاججاته للمستعمر وعقده لاتفاقيات مختلفة.

ومن أبرز الخطب التي تبيّن مكانة هذه الشخصية على الساحة الداخلية والخارجية، تلك التي قدمها في بعث الحماسة وتحضير الجيش للقتال، و التي يقول فيها :"أما بعد:فلا يخفى أن الله تعالى قال في كتابه المجيد (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) وقال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله). وهؤلاء القوم قد عاهدناهم فنكثوا، وصدقناهم فغدروا، وصابرناهم فلم يصبروا، وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد نكثوا بنا على حين غفلة، وهاهم قد خدعوا الدوائر والزمالة وغيرهم من ضعفاء الدين و حازوهم إليه. فما الذي يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم؟. ونحن موعودون بالنصر على أعدائنا فهيا بنا أيها المسلمون إلى الجهاد، وهلموا إليه باجتهاد، وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل، وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل أماعلمتم أن من مات منكم مات شهيدا، ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا"[23]، وهي خطبة قوية جمعت بين دلالات عميقة وانفعالات عاطفية متينة، حاول فيها الأمير تقوية العزيمة ولُناع الناسن وذلك عن طريق الأسلوب المباشر و الحجة القوية واللغة المتينة والموحية .

### 3-2- مرحلة مابعد الأمير عبد القادر:

يجمع المتتبعون للشأن الإبداعي الأدبي والتاريخي أن فن الخطابة بعد الامير شهد تراجعا كبيرا حد الغياب حيث انعدمت الخطابات الراقية والقوية، وغاب الأسلوب الفني المحكم و المترابط، نتيجة حالة الركود العسكري والسياسي، وسيطرة المستعمر على كل دواليب السلطة والشعب، برغم ظهور بعض المقاومة الشعبية المحتشمة من منطقة إلى أخرى، فكان من أهم الأسماء التي اهتمت بفن الخطابة، **"صالح بن مهنا القسنطيني"**، الذي يعتبره الكثير من الدارسين، المبشر الأول للنهضة الإصلاحية في الجزائر، حيث انطلق من مخاطبة عنصر الشباب محاولا الاستثمار في طموحاته ورغباته وقوته، لتحقيق التقدم و التحرر من الاستعمار و التخلف، ومن أهم خطاباته تلك التي يقول فيها:"يامعشر الشباب كم زرع جاح قبل الأوان، وكم من غصن صار حطبا إلى النيران، وكم من شباب أدرج في الأكفان فكأنه ماكان، فلا يغرنك الشباب، فإن مصيره إلى تراب، فبادروا بالتوبة قبل غلق الباب وسدل الحجاب، عسى أن تدخلوا في قول سيد ولد عدنان، وشاب نشأ في عبادة الله في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل للإنسان إلا ظل الملك الديّان"[24]، وهي رسالة مشحونة بالترهيب والترغيب، وكذا التذكير بالحقيقة الكونية والإرادة الإلهية، كما أنها ربط للصلة بين العبد وربه.

---

[23] الأمير محمد عبد القادر: تحفة الزائر، ص236.

[24] سليمان الصيد: صالح بن مهنا القسنطيني، حياته وآثاره، ص188.

كما يتجه صالح بن مهنا إلى المجتمع عامة، ليحذره من فتنة المال والفقر، مرغبا إياه في صون النفس و التحلي بالقيم العليا للدين، ومفصلا في ثواب الصبر على الفقر و الحاجة فينادي "ويامعشر الأغنياء ليس المال في حد ذاته كرامة، إنما الكرامة في التوفيق و الاستقامة، فالمال نعم العون لأهل التوفيق والإحسان، وبئس العون لأهل الفسوق والعصيان، فالمال عندك أمانة وأنت وكيل...ويامعشر الفقراء لا تجعلوا فقركم فقرين، فقرا من الدنيا وفقرا من الدين. فإن الفقر ينقسم إلى قسمين: فقر مثوبة وفقر عقوبة، فعلامة فقر المتوبة الصبر والطاعة، وعلامة فقر العقوبة السخط والإضاعة، واعلموا أن الفقر شعار الأنبياء والمرسلين..."[25]

### 3-3- مرحلة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لعل أول مايطالعنا في هذه المرحلة، هو ذلك الخطاب التعليمي الهادف، الذي يحرك العقول قبل القلوب، حيث تأثيث المعنى يقابله انفعال اللغة، فالشيخ العلامة "عبد الحميد ابن باديس" يلقي خطبة قوية سنة 1937وهو يكبر في الأمة صبرها ومقاومتها لدسائس المستعمر، فيهيب فيها تمسكها بقيم الوطنية والهوية القومية العربية قائلا[(26)]:

"الحمد لله الذي فضلنا بالعقل، وكملنا بالعلم وجملنا بالفضيلة وأسعدنا بالهداية والتوفيق.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الكامل بالفطرة، المكمل بالعصمة المبعوث للخلق رحمة... وعلى آله المنبثقين من أكرم النعم... وعلى أصحابه الذين نشروا الملة فبيّنوها... وعلى التابعين...

أما بعد: فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام، وأنصار العلم والفضيلة، حوربت فيكم العربية حتى ظن أنه قد مات منكم عرقها وفسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر،وتهدر خطباؤكم بشقاقها فترك الحصون والمعاقل، ويهزّ كُتّابكم أقلامها فتصيب الكِلا والمفاصِلَ، وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد... وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم...

وحورب فيكم العلم حتى ظنّ أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنّذالة...فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا وتشيدون له صرحًا سامقًا، فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه، جمعية العلماء المسلمين...».[(27)]

---

[25] المرجع نفسه: ص ن.

[(26)] المرجع نفسه، ص ن.

[(27)] عبد الحميد ابن باديس: آثاره، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ج 04، دط، 1968ص 202- 203.

أما الشيخ البشير الإبراهيمي فيتولى في خطبته عن جمعية العلماء المسلمين مهمة التعريف بها وبإنجازاتها بعد فترة قصية من تأسيسها، فيحمل خطبته أبعادا وطنية، وقيما أخلاقية، ودعوة إصلاحية، معتمدا في ذلك على فصاحة اللغة وصلابة الأسلوب وقوة العبارة وصدق الحجة وواقعية الطرح، وحسن التمثيل، حيث يقول:

"أيها الإخوة الكرام:

ثلاث سنوات مرّت على هذه الجمعية المباركة وكأنها يوم مر أو ليلة تقضت بالسهر، فإذا كانت المبادئ تدل على الخواتم فستمر عليها – إن شاء الله – السنون الكثيرة، وستستقبلها نامية مباركة فيها، فلا تستقبلها إلا كما يستقبل الصائم عيدة مشوية وأجرا، والطرح كلف، والملجج في البحر صعيدة، فرحا وبشرى واستدبار تلف، ولا تستقبلها إلا عن سُنّةٍ تحيا وبدعة تموت وحق يشاد وباطل يهدم، وحقيقة تثبت ووهم يتلاشى وفضيلة تنشر ورذيلة تقير.

ثلاث سنوات مرت... وما هي بالشيء الكثير في أعمار المبادئ والمشاريع التي تستمد حياتها من العناصر الخالدة، وإن كانت شيئا كثيرا في أعمار الكائنات الحسية التي تستمد حياتها من العناصر الفانية

إن وجود هذه الجمعية هو وجود الحقائق الخالدة وإذا كانت تعمل لمعنى لا يحده الزمان فهيهات أن يحدها ليل ونهار إن هذه الجمعية كالسحاب ساقه الله غلى بلد ميت فلا يقلع حتى يجيبه...وإن سائق المطر للبلد الميت هو سائق هذه الجمعية لهذا الوطن المشرف على الموت...». [28]

**ويمكن القول أن أسلوب الإبراهيمي اتسم بـ:**

-قوة العبارة، ووضوح الرؤية، ودقة البصيرة، والثقافة الرابعة، وبعد النظر، وقوة الكلمة، وصلابة الحجة من القرآن والحديث والتاريخ والواقع، ومخاطبه العقول والقلوب.

أما "الشيخ العربي التبسي" فقد سخر خطابه لـخدمة ونصرة القضايا الوطنية، ومحاربة المستعمر، والدود عن قيم المجتمع الأصيلة، والمنبثقة عن تعاليم الدين الإسلامي

1) نصرة القضية الوطنية ومحاربة المستعمر.
2) إصلاح المجتمع وتربيته وتوعيته.
3) بناء العقيدة السليمة والصحيحة (الإسلام).

---

[28] البشير الإبراهيمي: آثاره، ج1، دار الغرب الإسلامي، دط، 1997، ص 137- 138.

فيقول في إحدى خطبه (محفّزا ومباركا شمائل الأفراد): "إنّكم معشر الإخوان تقومون بعمل عظيم في سبيل الدين الحنيف، والعربية، والوجود المحترم....

إنكم أيها الإخوان تقومون بواجب أداء الأمانة حق الأداء وإنكم لتربطون الأولاد بالجدود، وتتعرضون عن طيب خاطر لمحن الدنيا ومصائب العيش، وتكافحون لسرد طائلة العدوان، وتفتحون بأيديكم أبواب السعادة في وجه الأمة.

يجب علينا أن نتعلم محاسبة أنفسنا قبل أن نحاسب الناس وقبل أن يحاسبنا الناس...

يجب علينا ونحن حاملوا راية الدين والقرآن- أن نكون أقوى روحا، وأعظم همة، وأكثر تضحية من أولئك المبشرين والمبشرات الذين هجروا البلاد والأوطان ...

إن الذين جاءوا ديارنا هذه لم يكونوا أكثر منا مالا وولدا وغنما كانوا أكثر منا علما ونظاما، فلنكن نحن دعاة وبناة العلم والنظام وفينا والله نواة هاتين القوّتين... ولنكن مع ذلك مثال الاستقامة الدينية... فقد بينا السمح دين أعمال لا دين أقوال...". [29] والملاحظ في هذه الخطبة:

1) إدراكه التام لمجريات الواقع الاجتماعي المتأزم، نتيجة الممارسة الهمجية للمستعمر.
2) تمكنه من طرق وآليات النصح والإرشاد، حيث المعرفة العقلية و الشرعية المتصلة بالعقل والواقع والتجربة
3) قوة الحجة، من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والتاريخ الإسلامي الحافل بالإنجازات والفتوحات.
4) عذوبة اللغة وفصاحة اللفظ، وهي صفات قلما تجتمع في الخطيب، لأنها صادرة عن وعي ومعرفة وعلم، وخبرة وممارسة.
5) حسن الترغيب وقوة الترهيب، وهي من الأساليب القوية التي ترتكز عليها الخطبة الإصلاحية في الجزائر، ومصدرها هو القرآن الكريم.
6) استنفار التاريخ ليكون حافزا للنصوص، من خلال عرض للشخصيات التاريخية، وسيرتها المتصلة بالدين والأخلاق.

وعندما نبحث عن كاتب آخر للخطبة نجد "**الشيخ أحمد توفيق المدني**"،الذي ألقى خطاباته بالمسجد الحنفي بالجزائر العاصمة أين خاطب ضمير الأمة بنبرة التحدي للمستعمر الفرنسي فيقول: «إن هذا الاجتماع وهو الأول من نوعه يقع في ساعة سلط فيها الاستعمار سوط نقمته وعذابه على الشعب الباسل البطل، فالحقوق

---

[29] ينظر العربي التبسي: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتحقيق د. شرفي أحمد الرفاعي، ط1، 1981، ص 201- 202- 303.

الإنسانية اضمحلت والأرض انتزعت من أصحابها، وأبواب الكسب الشريف أو صدت في وجه عموم الجزائريين، وأصبح اسمهم عند المستعمرين (البيتلو) و (الترون دي فيقي) أي سيقان أشجار التين، وأصبحنا نرى جهات من الوطن مكتوبا عليها دون حياء أو خجل: ممنوع دخول العرب والكلاب، لقد أصبحوا في بلادنا كل شيء... وأصبح الجزائريون لا شيء.

**خلاصة:**

من خلال ما سبق يمكن القول أن فن الخطبة عرف حضورا متميزا على الساحة الفكرية والأدبية الجزائرية، عكس بقية الأنواع التي كان وجودها متوسطا أو محتشما في بعض الأحيان، ولعل هذا راجع لطبيعة التوقيت الزمني المرتبط بالاستعمار، كما أن فن الخطبة عرف قوة ومتانة لغوية مستفيدا من عديد الشخصيات المبدعة والمفكرة والمصلحة، التي ظهرت في تلك الفترة، يضاف إلى هذا طبيعة المضامين التي عالجها الخطباء، حيث تمحورت على الإصلاح الديني والاجتماعي، وبناء الشخصية القوية مع المراهنة على فئة الشباب، حيث اثبت الخطيب الجزائري مقدرته على المحاورة الإقناع والتدليل كما أثبت عمق زاده المعرفي وارتباطه بالبيئة التي استلهم منها حضوره وذاته.

## المحاضرة الرابعة:

## تطور فن المقال في الجزائر:

### 1-تعريف المقال:

ارتبط مفهوم المقال من الناحية اللغوية بالنقل والتعبير والقدرة على توصيل الأفكار، حيث أورد أصحاب المعاجم هذا اللفظ مشتقا من " قال قولا ومقالا ومقالة: تكلم أي أنها تدل على الكلام، والكلام هو وسيلة نقل الأفكار، ومن يملك هذه المقدرة فهو قائل، وجمع قائل: قائلون والمصدر قوالة، ونجد كذلك قول الشاعر:

**مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل**

**ومن دعا الناس إلى ذمة ذموه بالحق والباطل .**

فالمدلول الحسي لهذا هو القول: على نحو ما نجد في معلقة النابغة وهو يعتذر للنعمان

(مقالة)إن قد قلت : سوف أنله وذلك من تلقاء مثلك رائع"[30]، فالمقال هو ارتباط بالقول وهو نقل للأخبار وتأثير في الناس، ومجراه أسرع من منحدر للماء، والسرعة صفة ثابتة فيه.

أما من الناحية الاصطلاحية فيجمع الدارسون على ربطه بخصائص محددة تتقاطع كثيرا مع مدلولها اللغوي، حيث يرون بأنه قطعة نثرية محدودة الطول، كتبت بطريقة عفوية، لتعبر عن موضوع معين، باستعمال الحجج والبراهين، لإقناع المتلقي والتأثير فيه، ويهدف كاتبه من ورائه إلى "التعبير عن مشاعره وإحساسه تجاه الطبيعة أو تجاه الحياة، ويعكس فيه تجربته، ويعنى فيه بالصياغة والجمال واللذة، ويراعي فيه التركيز ما أمكن"[31]، فالشعور والحجة من أهم صفات فن المقال؛ لأنه يستهدف الإقناع و التأثير والفاعلية القرائية، كما أن الخبرة والتجربة هما أساس فعل الكتابة، ولهذا فالمقال مرتبط بالإخبار من الناحية الدلالية، والجمال الفني من الناحية الأدبية.

وقد أورد الكاتب والناقد عباس محمود العقاد حديثا في وصفه لخصوصية المقال وعلاقته بالحالة النفسية للذات الكاتبة والمستقبلة، وكذا لطبيعة العلاقة بين الذات الكاتبة والموضوع المطروق فيقول:"المقالة يجب أن تكون مشروع كتاب في موضوعها لمن يتسع وقته للإجمال ولا يتسع للتفصيل؛ فكل مقالة في موضوع ما، هي كتاب صغير يشمل على النواة التي تنبت منها الشجرة لمن يرد الانتظار"[32]؛ اي أن المقال هو البدرة التي تنتج فكرا ووعيا وإصلاحا في المجتمع، سواء كان هذا المقال سياسيا أو اجتماعيا أو دينيا أو صحفيا أو أدبيا، لأن الفائدة تعود على الجماعة.

**2–ومن خصائص فن المقال:**

1. السهولة والوضوح ، لأنه يخاطب الجماهير المتفاوتة في الثقافة والوعي، فلا ينبغي على صاحبه التفخيم في اللفظ والمراوغة في المعنى وإظهار مقدرته على الكتابة، ولأكيد أنه كلما كان اللفظ صريحا والمعنى ظاهرا كلما أصاب المقال هدفه دون أن ينقص.

2. الدليل المنطقي والبراهين الهادفة لإقناع العقل والعاطفة، حيث تعتبر الحجة والدليل سمة غالبة في هذا الفن، والمقال الذي يفتقر إلى الحجة لا يمكنه نقل الأفكار والتأثير على المتلقي، وقد تكون الحجة عبارة عن مقولة تاريخية أو نظرية فلسفية أو تجربة علمية أو دواوين شعرية، كما هي في المقال الديني آية قرآنية أو أحاديث وسيرة نبوية، أو بطولات إسلامية.

---

[30]-عبد العزيز شرف: أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة، دراسة ونماذج، دار الجيل، بيروت، د، ط، د، ت، ص.19.

[31] محمد مصايف: النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983، ص136.

[32]-محمد خليفة التونسي، فصول من النقد عند العقاد، مكتبة الخانجي، مصر، ط1 ،ص301.

3. الميل إلى الإطناب لتقرير الفكر في النفوس، والإطناب ليس بالحد المنفّر من الشيء بل هو في المقال معقول وللنفس مقبول، ينشده الكاتب من منطلق الكتابة النثرية، التي تبيح له التصرف في جانب الطول وتحرر من سلطة الإيقاع.

4. إيثار اللفظ الشائع والتعبير الاصطلاحي المعروف في مجال التخصص، من خلال الارتباط بالسهولة والقصد في الهدف، حيث يتعين على صاحب المقال استعمال المتداول والمألوف من اللفظ، مع تجنب الغريب والمهجور والأعجمي.

5. عدم الجنوح إلى الخيال في المقالات العلمية، والاعتدال والوسطية في المقالات الأدبية؛ لأن المقال فن إخباري يتطلب الواقعية والمباشرة في الطرح، مع قرب الصورة من العقل واشتغالها في دهن السامع على مايتطلبه الواقع والمنطق.

6. أسلوبه متين ومتأدب، حيث يتميز المقال من الناحية الأسلوبية بشدة التماسك والانسجام بين أجزاء العبارة الشعرية، ولعل هذا راجع لارتباطه بقواعد اللغة الفصحى، وبخصائص الأسلوب الفني للأنواع الأدبية الأخرى كالرسالة والقصة والرواية والخطبة.

**3-عوامل ظهور فن المقال:**

يعود ظهور هذا الفن في منتصف القرن الـ 20 في الجزائر-حسب عبد الله الركيبي- إلى العوامل التالية[33]:

1- انتشار الصحافة.

2- حب التعبير عن الرأي وانتشار الوعي.

3- الصراع الفكري بين المثقفين.

4- الرغبة في الإصلاح.

5- الاحتكاك بالصحافة الأجنبية (العربية).

6- تشعب المشاكل الاجتماعية والسياسية.

**4-رواد المقال في البيئة العربية :**

مثل فن المقال مجموعة من الكتاب المتخصصين في الدعوة والإصلاح الاجتماعي والسياسي والديني فكان من أبرزهم جمال الدين الأفغاني و أديب إسحاق وسليم النقاش وسعيد البستاني وعبد الله نديم ومحمد عبده وإبراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال وعبد الرحمن الكواكبي، وبشار تقلا .وقد كانت كتابات هؤلاء الشخصيات تنشر على صفحات جريدة الأهرام ومصر والتجارة والفلاح والحقوق، فلم يمض قرن من الزمان حتى" أصبح فن المقال في هذا الطور ينضج ويستحوذ على الميدان الأدبي ويكون الجنس الغالب فيه، وقد عاشت

[33] عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، ص158.159.

هذه المدرسة على إثر جهود المصريين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،والذي كان موزعا على حركات ثلاث تجسدت في فكرة التمييز التي بدأت بالجملة وظهور محمد علي، حيث تمسك المصريون باللغة العربية واستمرار تدفق السوريين وعنايتهم بالأدب، ضف إلى ذلك حركة الدستور والتي تجسدت في ظهور المجالس"[34].

والأكيد أن ظهور هذا الزخم من الكتّاب في البيئة العربية، وكذا تطور الأحداث وتسارعها على الساحة السياسية والعسكرية والاجتماعية والفكرية والدينية، عجل بتطور هذا الفن وارتقائه في المجتمع مستفيدا من عاملي الطباعة والصحافة، فالدعوة إلى الرجوع للدين الإسلامي، والتشبث بقيمه الروحية واستنهاض الأمة من طرف جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، مثلت الحاجة الماسة لهذا اللون الأدبية، خاصة مع ما يتميز به من خصائص فنية تمكنه من النقل و المحاورة؛ أي نقل الأفكار ومحاورة الواقع والمجتمع.

**5-المقال الأدبي في الجزائر:**

إن المقالة الأدبية جاءت متأخرة عن المقال الصحفي، فإذا كان الدارسون يذهبون إلى أن المقال الصحفي قد نشأ في منتصف القرن الماضي، فإن المقال الأدبي في تقديرنا يرجع إلى هذا القرن، ذلك أن الصحافة العربية في الجزائر في القرن التاسع عشر كانت تخضع لإشراف الإدارة الفرنسية أو لمستشرقين و الذي كان يعني هؤلاء جميعا هو الخبر يساق في أسلوب بسيط ليصل إلى الناس، ثم أن الكتاب الجزائريين ما كان يمكن لهم في هذا الجو أ، يعبروا عن إحساسهم و مشاعرهم سواء فيما يتصل بالمجتمع و قضياه أو فيما يخص الطبيعة و الحياة بوجه عام، وإنما تم ذلك حين نشأت الصحافة الوطنية في بداية هذا القرن و أنشأ الجزائريون صحفا تعبر عن أفكارهم ومواقفهم و تعبر بالتالي عن دواتهم وآرائهم فيما يتعلق بالشعب الجزائري و مطالبه.

ولا شك أن ظهور الصحافة الوطنية في وقت متأخر يرجع إلى أسباب كثيرة، من بينها انعدام الحرية تحت الاحتلال، فالمصادرة للحريات السياسية و التعبير و الاجتماع و النشر كانت من بين العوامل التي أخرت ظهور الصحافة الجزائرية قبل هذا القرن، التأثير في الوجدان، ثم التعبير عن الذاتية أو شخصية أضف إلى ذلك مشكلة الطباعة و النشر، فإن هناك عوامل أخرى أسهمت في ظهور المقال الأدبي، مثل الصلة بالمشرق و اقتفاء الكتب والأدباء لأثر المشارقة إلى جانب الحركات السياسية و الإصلاحية التي لعبت دورها في هذه اليقظة الفكرية، الأمر الذي أسهم في أن تتعدد الأساليب و تظهر الأشكال الأدبية مثل المقال الذي ظهر ليعالج مشاكل سياسية ثم إصلاحية ثم أدبية إصلاحية، ثم أدبية صرفة بحيث يمكن أن نقول أن إيمان الكتاب بدور المقال في الحياة الأدبية والفكرية و الاجتماعية قد أسهم في انتشاره و ساعد على تطوره، فقد نشأ أولا و أخيرا في أحضان الحركة

---

[34]-عبد القادر رزق الطويل، المقالة في أدب العقاد، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط3 ،دت، ص48.

الإصلاحية التي كان كتابها يصدرون عن رؤية دينية إصلاحية، و ينفعلون بما يكتبون و يعبرون عن مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه المجتمع و الحياة، و من ثمة بدأ المقال الإصلاحي يتجه إلى مخاطبة العاطفة و كاتبه.

و يمكننا أن نرصد **نوعين من المقال**: المقال الأدبي الإنشائي /لمقال الأدبي الإصلاحي[35].

إذن هناك أنواع من (المقال) ظهرت في النثر الجزائري الحديث، و لكن العامل الأساسي الذي ساعد على وجودها و تطورها و على انتشارها، هو أن الصحافة قد لعبت دورا هاما في إذاعة هذا الشكل النثري كما ساعدت على إذاعة غيره من أشكال التعبير نثرا و شعرا.فكما كان للصحافة دورها في نشر النثر مثل المقال بل المقال بالذات.

هناك رجال الفكر الإصلاحي و هم الذين تأثروا بالثقافة العربية وبتراثها العريق وبنهضتها الحديثة في شتى الميادين الثقافية و الأدبية و الفكرية، فهؤلاء يمكن أن تميز فيهم نوعين من كتاب المقالة:

– النوع الذي اهتم بالفكرة و توصيلها بأسلوب صريح مباشر و باهتمام باللغة من حيث مفرداتها و أيضا من حيث أصالتها وقدرتها على تبليغ الأفكار بل و العناية ببعض خصائص الأساليب العربية و البيان العربي دمن اهتمام كبير بجمال التعبير و صياغته صياغة يقصد من ورائها اللذة الأدبية. و هذا النوع هو الأكثر أو هو النموذج الغالب في الكتابات الإصلاحية، و يأتي في مقدمة هؤلاء الشيخ (عبد الحميد بن باديس) و (العربي التيسي) و (مبارك الميلي)، و إلى حد كبير (عمر راسم ) و (الطيب العقبي) و غيرهم من كتاب المقال الإصلاحي الذي يغلب عليهم الطابع الذهني و الروح الدينية الواضحة و قليل من العناية بالجانب الفني الأدبي.

–أما النوع الثاني من كتاب المقالة الإصلاحية فهم أولئك الذين عنوا – إلى جانب الفكرة – بالتعبير والتصوير، و اهتموا باللغة وحدها لا من حيث نقاؤها و صفاؤها و مرونتها كما فعل السابقون، بل عنوا بها من حيث الإيحاء و جمال التعبير و مراعاة الصور البياني.

ويمكن التمييز بين نوعين منهم

الأول:– هو الذي لاءم بين الفكرة و الأسلوب العربي التقليدي و البلاغة العربية القديمة و يأتي في مقدمتهم الإبراهيمي.

الثاني:فهو الذي حاول أن يجدد في الصياغة و المحتوى معا، و يمثل هذا التيار (أحمد رضا حوحو)، مقال لحوحو بعنوان "الطرقية في خدمة الاستعمار" في "مجلة الرابطة العربية".

---

[35] المرجع السابق: ص136.

1946 ألف ثاني مقال له بعنوان "خواطر حائر" في جريدة البصائر و(رمضان حمود) و غيرهما ممن عبروا عن مشاعرهم و أحاسيسهم تجاه الطبيعة أو تجاه الحياة بوجه عام و حاولوا من خلال المقال أن يعكسوا إحساسهم بجمال الكون أو يصوروا تجربتهم في الحياة.

ولا يغيب عن البال أن المقالات التي كتبها مصلحون حول المجتمع الجزائري أو حول القضايا العربية أو العالمية تعبر عن وجهة نظر إصلاحية يغلب عليها الطابع الديني. أما المقالات السياسية التي كتبها كتاب ينتمون إلى الحركة الوطنية، فإن العناية فيها انصبت على المشاكل السياسية و على محاربة الاستعمار و أساليبه الإرهابية و الدعوة إلى الوقوف ضد مشاريعه الاستغلالية.

**6–مقالات الإبراهيمي (وروح الاستنهاض):**

وقد تمحورت مقالاته حول الكثير من العناصر المتصلة بالهوية والدين والأخلاق و السياسة، وفق حجج دامغة وبراهين منطقية، ومرجعيات تاريخية:

***في بيان حقيقة المستعمر:**

وفيه يشبهه بالمرض الفتاك والمخفي، الذي ينخر جسد المريض في صمت فيقول: "والاستعمار سُلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخْ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمةِ المعابد، وحارب الإيمان بالإيحاء، والتعليم بانتشار الأمية، والبيان العربيّ بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبيرٌ ولا تفكيرٌ".[36]

كما اهتم الشيخ بإصلاح ما أفسده الاستعمار الفرنسي، وإعادة بعث المجتمع انطلاقا من أسلوب التشبيه، المقترن بالترغيب والترهيب فيقول: «جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافِدة، تحم الموت وأسباب الموت».[37]، فالاستعمار لا يمثل خيرا للأمة بقدر ما يمثل بؤرة للفساد والشر، فالإبراهيمي حاول في مقاله التحذير من خطورة هذا الوجود، الذي سماه بالمرض لأنه إن لم يحار بالدواء اللازم فإنه سيكون خطرا على وجود الأمة، فهو ووجد ليفتك بالقيم والمبادئ الخاصة بالجماعة.

***في بيان أهداف الجمعية:**

ارتكزت المقالة الإصلاحية كثيرا على إبراز أهداف جمعية العلماء فيقول الشيخ "والحقيقة أنّ هذه الجمعية تعمل من أول تكوينها للإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي، وكلّ ذلك يتسع الإسلام، وكلّ ذلك يسعه

---

[36] عيون البصائر، ص 22.

[37] عيون البصائر، ص 21

مدلولها ومضمونها وقانونها، فالإسلام دين اجتماع، وإذا كانت دائرة الأول محدودة فإن دائرة الثاني واسعة الأطراف، وأن الإصلاح الديني لا يتمّ إلا بالإصلاح الاجتماعي...". [38]

***وفي بيان تحرير العقول:**

لقد تناول الشيخ البشير الإبراهيمي مسألة تحرير العقول لما لها من أثر في تقوية الشخصية والسلوك، بالإضافة إلى تحقيق التقدم والازدهار فيقول: "إنّ تحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان وأصل له، ومحال أن يتحرر بَدنٌ يحمل عقلاً عبدًا، إن هذا النوع من التحرير لا يقوم به ولا يقوى عليه إلا العلماء الربانيون المصلحون فهو أثر طبيعي للإصلاح الديني..." [39]، حيث يربط الإبراهيمي بين التحرر الداخلي والتحرر الخارجي؛ لأن تحرير العقول مصدر من مصادر الشعور بالقوة والثقة، وهذا التحرر مرهون بالتشبع بالقيم الدينية القائمة على حقيقة الوجود، كما أن الوصول إلى تحرير العقول يتطلب تسخير العلماء من الأمة، فهم من يبصرون الشعوب بما يجب أن يكونوا عليه، وهذا النوع من القال يعتبر سلاحا للوصول إلى الأنا ومواجهة الآخر .

***في بيان مشكلة المهور والزواج:**

كما عالج الإبراهيمي مسألة المهور وأعاب فيها المغالاة، حيث حاول الكشف عن خطورة الظاهرة وآثارها السلبية على المجتمع فنجده يقول:"تعاني الأمة الجزائرية وجاراتها المتحدة معها في الدين والجنس... عدة مشاكل اجتماعية لا يسع المصلحين إغفالها، ولا السكوت عليها بعد ظهور آثارها وتحقق أضرارها، وستعالج البصائر طائفة من أمهاتها، ببيان نتائجها وبينا وجه الرّأي في علاجها...

أعضل هذه المشاكل، وأعمقها أثرا في حياة الأمة، وأبعدها تأثيرا في تكوينها، مشكلة الزواج بالنسبة إلى الشّبّان».[40]، فالملاحظ أنه لم يتوقف عند حدود البلد بل رأى في هذه المشكلة آفة عامة على كل البلدان، وهي تمس قضايا المجتمع وقيمه في أعماقها، وهذا يوحي بالنظرة العميقة والمتبصرة للشخصية المثقفة في الجزائر، حيث يسوق صاحب المقال الكثير من الشواهد بغية التأثير وتحقيق الفائدة للجميع.

***في بيان التعليم:**

---

[38] آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 283.

[39] عيون البصائر، ص 34.

[40] عيون البصائر، ص 325.

تعتبر قضية التعليم من القضايا الجوهرية التي طرحها كتّاب المقال، مستفيدين من الخطاب القرآني الداعي إلى العلم، ومن طبيعة الواقع الذي فرضه المستعمر، بعد انطلاقه في حملات التجهيل وزرع الخرافة بين الجزائريين، فتحركت نخوة الكتاب المثقفين صوب التعريف بقيمة العلم في التقدم والازدهار، فيقول الإبراهيمي: "وجمعية العلماء تعتقد أنه لا يتم إصلاح التعليم في الداخل إلاّ إذا تمّ إصلاحه في الخارج، لشدة الاتصال بينهما...، ومُحال أن ينال التعليم الداخلي خيرا من معلمين يتخرجون من المقاهي، ويحصلون معلوماتهم من الجرائد الحزبية، ويتدربون في ميادين الحزبية على الشّباب، وتَنَقُّصِ التّعليم والتّنكّرِ للعلْم...". [41]،وهي دعوة صريحة إلى التأطير الفعلي والممنهج للعملية التعليمية التي ترتبط بالمجتمع كما ترتبط بالصحافة والأحزاب والنوادي الفكرية والأدبية التي من شأنها تعميق الفائدة، فالعلم نال حظه في فن المقال، نتيجة للحاجة الماسة إليه في بناء المجتمع.

**خلاصة:**

وهنا يمكن القول أن المقالة الإصلاحية كانت رائدة في الساحة الإبداعية الجزائرية، واستطاعت أن تحفظ الهوية الجماعية بفعل خصوصيتها ومطاوعتها لحدود المقاومة، فقد تمكن الكتاب الجزائريون من رصد كل الحقول الدلالية القوية التي من شأنها تقوية الصف وتمتين الأدب، وخدمة الشعور، كما عملوا على تقوية الشخصية الوطنية وتسليحها بالمبادئ والثوابت الوطنية والمعرفية، ففن المقال في الجزائر كتب في العلماء والدعاة والمفكرون والمشايخ، كما تنوعت مواضيع بحكم الحاجة المفروضة، والملاحظ أيضا أن هذا اللون في الجزائر اتسم بصلابة الحجة وقوة الإقناع، حيث حاول الكتاب محاورة ومحاججة العقول قبل القلوب، لأن التأثير المبني على الفاعلية والاقتناع هو الذي يستمر ويقدم الفعل اللازم للنمو والازدهار.

---

[41] عيون البصائر، ص 39.